

## إعداد الفرد لتأسيس مجتمع صالح



لا أركزون مبالغاً إذا قلت أن هذا الموضوع يشغل في الوقت الحاضر جميع الأذهان . بل سيظل شاغلاً لها ما دام الفرد عندنا على هذا الوضع وفي هذه الحال التي نرى . وإن كنت في ريب من هذا ، فندمّح إلى الناس في الطريق وفي غير الطريق . في عيشتهم الخامة والعامّة ، فإذا يقولون ؟ أنهم يسمون هذا الزمن ويأمنون الناس . ويستجيرون بالله من فساد الأخلاق وخراب النعم ، والسكل تقريباً في تساؤم وقليل من زراه منفثلاً ينتظر صلاح الحال . وهذه الثورة الفكرية هي في نظري أول مراتب الكمال . فادمننا نطمح إلى الرقي وما دامت مصر ترى أن تسام نصيب في وضع المستوى الانساني ، ينبغي أن نعمل جادين في حثيل إيجاد فرد قوي يتكوّن منه مجتمع صالح لتلك الحياة الجديدة التي ستخلقها لنا هذه الحرب العيرس . ينبغي أن نعمل حذرين بما لا يفتق فيها مع ما وورثناه من عرف صحيح .

وسأبني كلمتي في هذا الموضوع على أساسين اثنين : —

الاول : إن الحضارات كلها تقوم على الترد ، بمعنى أن العلم الذي أوجد الطائفة أو المذيع أو الكمبرياء ، هو نتيجة عمل الترد أولاً ، لا عمل جماعة . وعلى ذلك يجب أن تقوم الدولة على خدمة الترد ، وأن نسير الأوضاع فيها على ذلك لاهل نظم من مقتضاها أن يصيب الترد في الدولة .

الثاني : إن سعادة الترد خاصة لتظروف والأحوال التي تحيط به ، لا أن سعادته خاصة لاستعداده النفسي الخصب ، كما يذهب بعض فلاسفة الأخلاق . وعلى هذا سأطرح من حسابي من يدين هذا المذهب الأخير ، لأنهم أقلية لا يمسح أن تأخذهم حكماً عاماً .

ولننظر الآن إلى الواقع من أمر الترد في مجتمعاتنا الحالي ، وذلك بالنظر إلى ما يحيط به من حيث الصحة والمرض والذنى والفقر ، والعلم والحمل . ثم ننظر فيما يجب أن يكون عليه الترد لتأسيس مجتمع صالح لهذه الحياة الجديدة التي ستقابه حتماً بعد أن تقع هذه الحرب أو زواها .

فهل الظروف المحيطة بالفرد عندنا الآن ترضى عنها عزتنا القومية وماضينا المجيد ؟ وهل من شأنها أن يشمر الانسان معها في الأغلب الاصح ، بحسن تربيته أو بحسن مؤلم ؟ إذا نظرنا إليها من حيث الصحة والمرض وأينا محبباً ، فلقد أثبت المغنور له المرحوم عبد الواحد الوكيل بك في محاضرة له بنائه عن احصاء سنة ١٩٣٨ أن في مصر من الأمراض ما لو قسم على عدد السكان لخرج كل فرد بثلاثة أمراض . وأثبت أن مصر في وفيات الاطفال متأخرة حتى عن الهند . وأن ٧٥٪ من عدد السكان مصابون بمرض البلمبارسيا و ٥٠٪ بالانكلستوما . ومثل هذه النسبة الأخيرة مصابون بالديدان المعوية . وأحسبني من هذه النتائج كنت في حاجة الى الكلام بعد هذه الأرقام وبعد هذه النتيجة التي تعتبر وصية في جبين الأمة بأسرها . فهذه الأمراض تحط من قيمة الفرد مادياً ومعنوياً ، فهي من ناحية لا تمكنه من الموازنة بين إنتاجه واستهلاكه ، ومن ناحية تجعله في عذوذ خلقي بحيث لا يستريح معه غيره في عشرة أو سبعة . وكل ذلك وبال وخسران .

\*\*\*

وإذا نظرنا في واقع الأمر مع هذا الفرد من جهة النقي والفقر رأينا حالاً ليست بأحسن مما قد رأينا . ذلك أن النظام الاقتصادي في هذا البلد قائم على أساس ليس من شأنه أن يحقق للفرد حياة سعيدة . ولأنني نظام ذلك الذي يقضي بأن يأخذ ٩٣٪ من الملاك ٢٠٪ من الأراضي الزراعية ، ثم يقضي بالباقي وهو ٨٪ من مجموع الأراضي لـ ٧٪ من عدد الملاك . ولست أقصد هنا أن نسل مالكاً حقاً مكسباً . فانا لو قسمنا الأراضي على الأفراد بالتساوي لما خرج الفرد الواحد بعشر قراريط . بل أقصد أن أقول إن هذا النظام نشأ عنه بعد النسبة بين طبقات الشعب . فقل من يريد أن يعد الفرد لمجتمع صالح - والكحل طبعاً يريد - عليه أن يعمل أولاً وقبل كل شيء ، على التقريب بين طبقات الشعب ، ويكون ذلك من طريق الضرائب التصاعدية بحيث يعنى منها الفقراء وصغار الموظفين ، على أن يتحمل الضريبة كبار الاغنياء بنسبة تتصاعد بزيادة الزروة . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى لا يجوز أن تبسح الدولة لزيد من الناس أن يمتلك من الأرض القابلة للإصلاح من غير أن تشترط عليه اصلاحها في زمن محدود . فانا نرى فلاناً من الناس يمتلك من هذه الأرض ما يربو على الآلاف ، ثم يتركها للزمن على حد تدبيره من غير أن يجري فيها إصلاحاً يذكر ، ويجوارده من الأسماء ما لو وزعت عليهم هذه الأرض ملكيات صغيرة ، لاستثمرها واستقرروها وطادت عليهم بالتغير وعلى المجتمع بالأمن .

ننظر بعد ذلك الى الظروف المحيطة بالفرد عندنا من حيث العلم والجهل . ونحن سوف لا أنظر إليها من جهة الكم أو الكيف ، بل سأنظر إلى النتيجة التي يخرج الفرد بها عندنا

من هذا التعليم . فقديمًا قالوا : « القدم يدل على المسير » فهل واقع الأمر نتيجة لهذا التعليم ، أن الفرد يخرج من هذه المرحلة مزوداً بالعادات والآداب العامة التي يكون لها أثر صالح في سلوكه الشخصي ، يقره من النصيلة ويبعده عن الرذيلة ؟ هل يخرج الفرد من هذا التعليم قادراً على أن يشق لنفسه طريقاً قويمًا في الحياة ؟ هل يخرج الفرد من هذا التعليم منزهاً بالأطلاع والبحث الشخصي بعد المدرسة ؟ هل خلق هذا التعليم للفرد عقلية عنادة بالنظام الذي يظهر أثره في حياة الفرد والأسرة ؟ هل هدانا هذا التعليم إلى حل مشاكلنا الاجتماعية ؟ وهل أخرج لنا هذا التعليم فرداً مستقلاً في عمله حرّاً في رأيه ذا شخصية محترمة له إرادة ، وفكر لا يتجمل ولا يتردد ولا يخاف من مسابقة نظرائه في المجتمعات الطبية ؟ الأحوال والأرقام تنطق بالعكس . فثلاً كان عدد المتعلمين عندما في سنة (١٩٢٧) ٢١٦٢٤٣ أتدرون كم وسلوا في تعداد سنة ١٩٣٧ ؟ إنهم وصلوا ١٧٨٤٨٦ أي إلى النصف تقريباً في كم سنة ؟ في عشر سنوات . وهذه نتيجة ليس من شك في أنها تخلق بالغبورين على شؤون هذا البلد .

أنظروا إلى المرافق الحيوية في البلاد تروها ليست في أيدينا ولر كان توجيه التعليم عندما حسناً لما كان هذا . نحن لا نزال حبالاً على غيرنا حتى في السواد الكيماوي ، بالرغم من أن بلادنا زراعية . أنت حينما تمشي في شوارع القاهرة الكبرى تكاد تلمس يأسك غريب في بلدك . أين نحن في هذه الناحية إذاً ، ممن يحاولون الآن إبتاع السم بواسطة الأسنان ؟ وأين نحن ممن يحاولون إخضاع الطبيعة لتجعب لهم غيوماً في مكان واحد وتفرغ ما بها فيه . إنهم الآن يحاولون اختزان أشعة الشمس لما رأوا أن مادة الوقود يخبث من فادها في هذه الحرب الفروس التي لا تبقى ولا تدر . الحق أن هذه الناحية هي الأخرى محتاج إلى وضع جديد يلأم روح العصر ، وينمشى مع ما ورثنا من عرف صحيح .

\*\*\*

نستطيع إذاً بعد هذا العرض السريع أن نقول إن الظروف المحيطة بالفرد عندما ليس من شأنها أن تجد فرداً سعيداً يحيا حياة فاضلة - وطبعاً نتبع باب الاستثناء لأقلية ، هي الواقع مثل الفرد الناضل عندما ، بالأزاع - لذلك لا تكون متباينين إذا قلنا إن الأفراد عندما لأن يحبون حياة مبشرة مرتبكة مضطربة ليس فيها انسجام حتى بين أعضاء الأسرة الواحدة بل هناك خصام وتنازع وشقاق وفوضى جرت بها عليها هذه الظروف المحيطة بالفرد أترك الأسرة وانظر إلى نفسك في خارج بيتك وفي حملك ، أتري في حملك المثلثاناً ؟ كلا ، بل

هناك حقد وحسد وفساد ونفاق وكذب . لماذا ؟ لأن الظروف المحيطة بنا كوّنتنا على هذا الوضع . وهذا ولأن الدليل الاجتماعي لم يُستفد بعد بكل ما يحمل هذه الكلمة من مدلول . لذلك لا تعجب إذا أنت قد رأيت الكذاب الذي يشيع عنك السوء لحاجة في نفسه . ولا تعجب إذا أنت قد رأيت التراف الذي يشيع شهرته على حسابك . وفي النهاية لا تعجب إذا أنت قد رأيت مجنماً مريضاً . وما دنا نمتدح للفرد بحق الحياة ، فالطريق إذاً لاعداده إعداداً حسناً أحد أمرين اثنين لا ثالث لهما : إما أن نمدّه شراً خبيثاً جباناً سارقاً منافقاً ليلائم بينه وبين بيئته ، وبكيفية نفسه وفق هذه الظروف المحيطة به ليمش بها تدفقه الفريضة . وهذا طالما لا يرضى منه دين ، ولا يرضى عنه فضيلة ، بل ولا يرضى عنه عقل سليم ، يقطع النظر عن الدين والفضيلة ؛ فالفسق مثلاً لو لم يجرمه الدين طرئته الفطرة السليمة . وإما أن نحسن للفرد هذه الظروف المحيطة به ، وهذا هو الإصلاح من باب . أما أن تترك الظروف تتصرف في عظام الأفراد وتروسمهم وتطلب منهم بالسكلام والسكلام غيب ، أن يكونوا لنا مجتمعاً صالحاً ، فهذا الغاية لا عقل ، ومنطق معكوس ، ووضع للشيء في غير موضعه .

ووضع الندى في موضع السيف بالهلا مضرّ كوضع السيف في موضع الندى والأفكيف تطلب من الفرد ألا يدمر وأنت تسرقه . كيف تطلب منه أن يعمل وأنت تظلمه . وكيف تطلب منه أن يزهد في الدنيا وأنت منها متخوم . هل يروا الأفراد معنى العدل ورفع الظلم عنهم . عدوهم معنى الطرية برفع الاستعداد عنهم . علومهم معنى الصدق بعدم الكذب عليهم . وما أوجعنا في هذه الناحية إلى القدوة الصالحة وضرب الأمثال حين فرجه الأفراد

\*\*\*

ولتحسين هذه الظروف المحيطة بالفرد ينبغي أن تنبج إلى التجارة والصناعة بحوار الزراعة وأن يحمل الفرية هي الغرض من التعليم ، لا مجرد حشو القهمن بمعلومات فارغة لاتنفج الانسان حين يخرج إلى معاك الحياة . والآن وإلى أن نحسن هذه الظروف ، ينبغي أن نعلم الحرب على أنفسنا ، وليتصرف كل ما عبوت نفسه ، وليعاديها . إنهم موادة حتى يردوا إلى الصراط السوي ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

منصور سراج  
الدرر ولاية أسود الدين